الرجاء

قال شيخ ذات مرة: "أخ كان قد وقع في الخطية وكان حزيناً لدرجة أنه كسر القاعدة الرهبانية. وعندما أراد أن يبدأ بداية جديدة، منعه ضيقه من القيام بذلك، قائلاً لنفسه: متى يمكنني أن أجد نفسي كما كنت من قبل؟ وبسبب الإحباط لم يتمكن من بدء العمل الرهباني. فأتي إلى أحد الشيوخ وشرح له وضعه. ولدى سماعه عن ضيقه، قدم له الشيخ المثال التالي: "كان هناك رجل لديه حقل، لكنه أصبح خرباً بسبب إهماله وكان مليئاً بالاعشاب والشوك. في نهاية المطاف فكر أن يزرعه. فقال لابنه: "اذهب ونظف الحقل". ذهب ابنه لتنظيفه لكنه شعر بالإحباط عندما رأى الكثير من الشوك، قائلاً لنفسه: "متى سأسحب كل تلك الحشائش وأنظف ما هو هنا؟" ثم استلقي وبدأ النوم لعدة أيام. بعد ذلك جاء أبوه ليرى ما فعله. وعندما وجد أنه لم ينجز شيئاً، قال له: "لماذا لم تنجز شيئاً حتى الآن؟" قال الشاب للأب: بمجرد أن بدأت العمل، يا أبي، تثقلت بمنظر الأعشاب والشوك الكثير، ونتيجة لإحباطي، استسلمت للنوم. فقال له أبوه: "يا ابني، نظف مساحة تعادل عرض غطاءك كل يوم؛ بهذه الطريقة سوف تتقدم في عملك ولن تثبط عزيمتك". عند سماع هذا، فعل ذلك، وفي وقت قصير، تم تنظيف الحقل. وكذلك أنت يا أخي، تعمل شيئا فشيئاً. لن تثبط عزيمتك، وسيعيدك الله لحالتك السابقة من أجل صلاحه". عندما سمع الأخ ذلك وبقي هناك بصبر بدأ يفعل ما تعلمه من الشيخ، وبنعمة المسيح، وجد راحة".

"في بداية طريق التوبة يواجه الشيطان الإنسان باليأس. فمن ناحية، يجعل طريق التوبة صعباً على الإنسان، ومن ناحية أخرى يكشف ماضيه الذي يحتوي على خطايا رهيبة. يبذل الشيطان قصارى جهده ليترك الإنسان يسقط في اليأس، حتى يعود إلى الخطيئة. في هذه المرحلة يكون الرجاء مفيداً جداً للإنسان. الشيطان يسحبه إلى الوراء والرجاء يعطيه دفعة جيدة إلى الأمام. لقد ارتكب يهوذا الإسخريوطي وسمعان بطرس خطايا رهيبة. الأول باع سيده بثلاثين قطعة من الفضة والثاني أنكر المسيح وجدف باللعنات والشتائم أمام فتاة خادمة عادية، ولا حتى أمام حاكم أو والي أو ملك. ومع ذلك أدرك سمعان بطرس خطيئته، وكان حزيناً للغاية، وبكى بمرارة. قبله الرب وأعاده إلى وضعه الرسولي بقوله له: "ارعَ خرافي ...، ارعَ غنمي ...، ارعَ غنمي" (يوحنا ٢١: ١٥، ١٦، ١٧). إلا أن يهوذا الإسخريوطي فقد رجاءه. عبر بطرس عن رجائه في رسالته الأولى بقوله: "فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم" (١ بط ١:١٣) و"بل قدسوا الرب الإله في قلوبكم، مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف" (١ بط ٣: ١٥). يذكر كتاب "بستان الرهبان" قصة أخ عاش في دير واعتاد أن يقع عدة مرات في خطيئة الزنا. كان يكره نفسه وكان مستعداً لمغادرة الحياة الرهبانية. ومع ذلك كان حريصاً على إكمال عبادته اليومية بتلاوة المزامير والصيام والسجود. وكان يقول في صلاته: "يا رب، أنت ترى حالتي السيئة وحزني، اسحبني إلى أعلى يا رب سواء أردتُ ذلك أم لا. أنا مثل المستنقع. أرغب بالخطيئة و أحبها لكنك رب قوي، اجعلني أمتنع عن هذه القذارة. سيكون غريباً لو كان لديك رحمة على القديسين فقط، أو أنك فقط تخلص الذين يستحقون أن يخلصوا.

أظهر عمل رحمتك العجيب فيّ أنا الذي لا يستحق. هأنذا أخضع نفسي لك". كان معتاداً أن يقول هذه الصلاة كل يوم سواء سقط في الخطية أم لا. في أحد الأيام غضب الشيطان من رجائه، وظهر له عندما كان يقرأ مزاميره وقال له: "ألا تخجل من الوقوف بين يدي الله ونطق اسمه بشفتيك النجستين؟". فأجابه الأخ: "أنت تفعل شيئاً وأنا أفعل شيئاً آخر. أنت جعلتني أسقط في الخطيئة وأنا أطلب من الله الرحوم أن يرحمني. أنا أقاتلك بهذه الطريقة حتى يأتيني الموت ولا أتخلى عن رجائي في ربي. أنا لا أتوقف عن إعداد نفسي للوقوف ضدك وسنرى من سيفوز، أنت أم رحمة الله. عندما سمع الشيطان ذلك قال له: "من الآن فصاعداً لن أشن حرباً ضدك، لكي لا تفوز بإكليل بسبب رجائك في إلهك"، وتركه الشيطان من ذلك اليوم. فعاد الأخ إلى نفسه وبكى بمرارة على خطاياه الماضية. وكلما شعر بالكبرياء، كان يتذكر خطاياه الماضية وكلما شعر باليأس كان يرجو في الله ويتذكر محبته للخطاة. قال القديس أوغسطينوس: "إذا لم تُسحب الخطيئة منك، فلا ينبغي أن يُسحب منك الرجاء في الغفران. إن أمواج البحر تزعجنا، ومع ذلك نسقط مراسينا على أرض الرجاء".

الرجاء هو أحد الفضائل العظمى - الإيمان والرجاء والمحبة (١كو ١٣: ١٣). الإيمان يولد الرجاء، ومن يقتني رجاءً في الله يحبه. وبواسطة المحبة، يصل المرء إلى قمة علاقته بالله. ومن ثم، نرى الروابط القوية بين الفضائل الثلاث العظيمة. ولا يمكن الفصل بينهم، وإن كان من الممكن التمييز بينهم. المحبة تعتمد على الإيمان والرجاء، والإيمان يعتمد على الرجاء والمحبة، والرجاء يعتمد على الإيمان والمحبة. إن أهمية الرجاء واضحة، لأن من يفقد الرجاء يفقد كل شيء معه، حتى الحياة نفسها. أي أنه عندما يفقد الرجاء يقع في اليأس والاكتئاب. إنه الرجاء الذي يدفع الإنسان إلى الجهاد والسعي، سواء في حياته الجسدية أو الروحية. فإذا تمكن الشعور باليأس والعجز منه،فإنه سوف يتوقف تماماً عن العمل والجهاد. وبالتالي، يكون الرجاء هو القوة الدافعة في حياة الإنسان. وبما أن الرجاء مرتبط بالإيمان والمحبة، فإنه يرتبط أيضاً بالفرح. قد يقع المرء في خطيئة معينة ومع ذلك يملأه الرجاء بالروح ونتيجة لذلك يختفي حزنه ويُستبدل بالفرح. الرجاء هو عطية مجانية من الله. يقول الرسول بولس: "وربنا نفسه يسوع المسيح، والله أبونا الذي أحبنا وأعطانا عزاء أبدياً ورجاءً صالحاً بالنعمة، يعزي قلوبكم ويثبتكم في كل كلام وعمل صالح" (٢ تس ٢: ١٦-١٧).

يجلب الرجاء السلام والفرح إلى القلب، كما يقول الرسول بولس لأهل رومية: "فرحين في الرجاء" (رو ١٢: ١٢). الخطيئة تسلب السلام من الروح وانعدام الرجاء يسبب القلق. الرجاء يهدئ القلب ويستبدل الحزن بالفرح ويملأ القلب بالراحة. يقول القديس أوغسطينوس: "الرجاء ضروري لك أثناء سفرك وهو راحة على الطريق. عندما تتعب تتذكر أنه بعد بعض الأحيان سوف تصل إلى وجهتك. إذا كنت تفقد رجاء الوصول، فإنك تفقد طاقتك سريعاً، وسوف تكون غير قادر على الاستمرار. أنت تفعل الآن ترجو أن يكون مثمراً وأن تستمتع بهذه الثمار. إنك تكون سعيداً عندما تجاهد وتكون أكثر سعادة عندما تجني الحصاد. إذا كان الرجاء لديه هذه الحلاوة، فإن الواقع أحلى".[٤]

"دعونا نكون مجتهدين ويقظين في خدمة الله، وفكر في كثير من الأحيان لماذا تركت العالم وأتيت إلى هنا. ألم يكن الأمر أنك أردت أن تعيش لله وتصبح إنساناً روحياً؟ اسع بجد لتحقيق الكمال، لأنه في وقت قصير سوف تتلقى مكافأة من العمل الخاص بك، ثم لا خوف ولا حزن سوف يأتي عليك في ساعة الموت. اتعب قليلاً الآن، وقريباً سوف

[٤] بستان الروح، نيافة الأنبا يوأنس أسقف الغربية عن الرجاء

تجد راحة كبيرة، في الحقيقة، سوف تجد الفرح الأبدي. لأنك إذا واصلت العمل بإخلاص ودأب، سيكون الله بلا شك أميناً وسخياً في المكافأة. استمر في اقتناء رجاء معقول في الحصول على الخلاص، ولكن لا تتصرف كما لو كنت متأكداً من ذلك خشية أن تصير وقحاً ومتكبراً. في يوم ما، تأرجح رجل ما بشكل متواتر قلوق بين الرجاء والخوف وضُرب بالحزن، فركع في صلاة متواضعة أمام مذبح الكنيسة. وأثناء التأمل في هذه الأمور، قال: "آه لو كنت أعرف فقط ما إذا كان ينبغي أن أثابر حتى النهاية!" على الفور سمع ضمن الإجابة الإلهية: "إذا كنت تعرف هذا، ماذا كنت ستفعل؟ افعل الآن ما كنت ستفعله حينها وستكون آمنا تماماً". وإذ شعر على الفور بالتعزية والراحة، أسلم ذاته نفسه إلى الإرادة الإلهية وتوقف عنه عدم اليقين القلق. لم يعد فضوله يسعى لمعرفة ما يحمله له المستقبل، بل حاول بدلاً من ذلك أن يجد الكمال، أي إرادة الله المقبولة في بداية ونهاية كل عمل جيد.[٥] "هذا هو أساس الطريق إلى الله، في الكثير من الصبر، في الرجاء، في التواضع، في مسكنة الروح، في الوداعة للسفر على طول طريق الحياة."[٦]

كما قال الأنبا بيمن أنه كان يبدا بداية جديدة كل يوم." "يا إلهي لا تتخلى عني. لم أفعل شيئاً جيداً أمامك، ولكن امنحني، في رحمتك، القدرة على البدء" دعونا ننسى ما هو وراء ونمتد إلى ما هو قدام ، ولا نفقد الرجاء أبداً. ودعونا نسأل الله أن يقودنا إلى بداية جيدة في هذا العام من خلال الرجاء. ومثلما هو الحال مع الفخاري في سفر إرميا، فإن الله قادر على أن يصنعنا وعاءً جديداً مستعداً لنعمته، وأيضا إشعياء يقول: "وأما منتظرو الرب فيجددون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور. يركضون ولا يتعبون. يمشون ولا يعيون". لأن الله هو رجاء من ليس له رجاء ومعين من ليس له معين.

---

[٥] الاقتداء بالمسيح

[٦] القديس مقاريوس، العظات الروحية الخمسين والرسالة العظيمة، عظة ٢٧